و﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ من الطوف، ففُعلانه طوف بالغ لا مرد عنه، وهو يشمل طوفان الماء كما كان لقوم نوح، وطوفان الريح الشديدة الحاملة لما تحمل من غبارات وقذارات، فقد طاف بهم الطوفان فاستأصل كلّ رياحة عن حياتهم، وهكذا سائر الخمسة من الرجز.

و﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ قد تعني إلى فصل بعضها عن بعض دون وصل، تفصيل كون كلّ واحدة منها آية مستقلة دون أن تكون لزاماً من خلفية الأخرى، كما ولا صلة بين هذه الخمس في مظاهر عللها الطبيعية، ومفصلات مبينات في الدلالة على كونها آيات الله.

ومن كونها مفصلات أن كلًّا كانت تأتي بفصل خاص خطوة خطوة، من دانٍ إلى عالٍ إلى أعلى، فقد كان ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أعلاها عذاباً و﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أدناها، وبينهما متوسطات، كما هي طبيعة الحال في البلوى ليذكروا بها.

وما أنسبها خماسية العذابات هذه، خماسية اللعنات في هؤلاء الأنكاد، فالطوفان المدمر لأنهم كانوا طوفاناً يدمّر الحق وأهله، والجراد حيث يجرد الثمر، إذ كانوا يجردون الحياة الإنسانية عن ثمرتها السامية، والقمل حيث تمتص الدم وتؤذي صاحبه وهي تسكن مساكن القذارات، وهم يمتصون دماء الحياة ويؤذون ذوي الحياة، والضفادع إذ ضفدعوا: متقبضين منكمشين أمام الحق، والدم إذ كانوا دماء يسيلونها في سبيل الباطل: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ عن السحر، مبيّنات لإحقاق الحق ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الخضوع لها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ يجرمون ثمرة الحياة قبل إيناعها، نكراناً لآليات على التماعها.

هناك ﴿أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ وهنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ...﴾.

تختصان هذه العذابات الست بهم دون بني إسرائيل على اختلاطهم بهم، مما يدل على أن هذه لم تكن لهم عذاباً وإنما هي لهؤلاء، فقد تصدق الرواية أن القبطي كان يأخذ الماء من النيل دماً أحمر له طعمه ولونه،

والإسرائيلي يأخذه منه ماء فراتاً له طعمه ولونه، وهكذا الطوفان والجراد والقمل والضفادع إذ لم تكن تؤذي الإسرائيليين!، وكانت تستأصل كلّ رياحه عن حياتهم أولئك اليومية، حتى اضطروا على فرعنتهم وغرورهم أن يلتجئوا إلى موسى لما وقع عليهم ذلك الرجز العذاب الأليم[١]:

(١) نور الثقلين ٢: ٥٨ علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام - دخل حديث بعضهم في بعض - قالا: لما آمنت السحرة فرجع فرعون مغلوباً وأبى هو وقومه إلّا الإقامة على الكفر قال هامان لفرعون: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس كلّ من آمن به من بني إسرائيل فتابع الله عليهم بالآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث عليهم الطوفان فخرب دورهم ومساكنهم حتى خرجوا إلى البرية وضربوا الخيام وامتلأت بيوت القبط ماء ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة وقام الماء على وجه الأرض لا يقدرون على أن يحرثوا فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا وقال هامان لفرعون: لئن خليت بني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك وأنبت الله لهم في تلك السنة من الكلاء والتمر والزرع والثمر ما أعشبت به بلادهم وأخصبت فقالوا: ما كان هذا الماء إلّا نعمة علينا وخصباً فأنزل الله عليهم في السنة الثانية - أو في الشهر الثاني - الجراد فجردت زروعهم وأشجارهم حتى كانت تجرد شعورهم ولحاهم وتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وكانت لا تدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء فعجوا وضجوا وجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً وقال: يا موسى ادع لنا ربك أن يكف عن الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل فدعا موسى ربه فكف عنه الجراد بعد ما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت، فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة - أو الشهر الثالث - القمل وهو الجراد الصغار لا أجنحة له وهو شر ما يكون وأخبثه فأتى على زروعهم كلها وأفناها من أصلها فذهبت زروعهم ولحس الأرض كلها... وأخذت أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزمت جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعتهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا القمل لأكفن عن بني إسرائيل فدعا موسى عليه السلام حتى ذهب القمل بعدما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة - أو الشهر الرابع - الضفادع فكانت يكون في طعامهم وشرابهم وامتلأت منها بيوتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلّا وجد فيه الضفادع وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ويفتح فاه لأكله فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه فلقوا منها أذى شديداً فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه السلام وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود فادع الله أن يذهب عنا الضفادع فإنا =

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

﴿ٱلرِّجْزُ﴾ هنا هو الحياة البئيسة التعيسة النكدة النكبة من جرّاء خماسية العذاب ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى﴾ وقضية الجمع أن يكون فرعون بملئه معهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وذلك سوء أدب معه أنه تعالى فقط ربه لا وربهم ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من إجابة الدعاء خارقة للعادة كما عودتنا «لئن كشفت عنا الرجز - بدعائك - لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» وعدان اثنان هما العصب الحساس ضدّ ما تعصبوا عليه من الكفر والاستبعاد ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ بدعاء موسى فالكاشف - إذاً - هو الله دون موسى، وتلك كانت غلطة غليظة، ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ كـ﴿رَبَّكَ﴾، ﴿كَشَفْنَا . . . إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، وهو المهلة التي بلغوها ولمّا يؤمنوا ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ما عاهدوا، وهذه المهلة هي بين ما أمهلهم موسى إياها أم هم أمهلوا أنفسهم فيها،

= نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام عليهم سبعاً من السبت إلى السبت ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم فسال ماء النيل عليهم دماً فكان القبطي يراه دماً والإسرائيلي يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلي كان ماء وإذا شربه القبطي كان دماً وكان القبطي يقول للإسرائيلي: خذ الماء في فيك وصبه في فيّ فكان إذا صبه في فم القبطي تحول دماً وإن فرعون اعتراه العطش حتى أنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماءها في فيه دماً فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون إلّا الدم ولا يشربون إلّا الدم - قال زيد بن أسلم: الدم الذي سلط عليهم كان كالرعاف - فأتوا موسى عليه السلام فقالوا: «ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا ولم يخلوا عن بني إسرائيل» أقول: والمقبول من هذه الرواية وأمثالها ما لا تخالف القرآن وإن لمحة وإشارة، فقد كثرت الإسرائيليات في أحاديثنا لحدّ ما نجى أي كتاب حديث وفقه وتفسير عنها فلنتجرد لما يوحيه لنا القرآن، ولنجرده عن التفاسير التي تخالفه أم لا توافقه إذ لا تواتر لنا إسلامياً يعلو القرآن أم يساميه ويوازيه، فليطرح كلّ حديث يحدثنا بما لا يصدقه القرآن.

وعلى أية حال كان أجلاً هم بالغوه بطبيعة الحال وقبل أن يغرقوا عن آخرهم في تقدير الله.

ذلك وقد تحتمل ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ إلى عهد إجابة الدعاء، أصل الرسالة التي هي عهد خاص من الله، والباء بين سببية فـ ﴿ٱدْعُ﴾ بسبب الرسالة التي هي أزلف الزلفى إلى الله، وقسم. فـ: قسماً برسالتك من الله إن كنت رسولاً، كما وأن «ما» تحتمل الموصوفة إلى الموصولة، فلقد كانوا يناقضون في أقوالهم بمختلف حالاتهم، فتارة ينكرون رسالته وأخرى يتعلقون بها في قضاء حاجاتهم الضرورية!.

فلقد كانوا يلجؤون إلى موسى، يتطلبون بإصرار تحت ضغط البلية الفاضحة الفادحة، يعدونه الإيمان له وأن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها بدعائه فـ ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾!.

ذلك، فلما انتهى أمر الابتلاء إلى ما لا منفذ فيهم بها من الذكرى فلم يبق مجال إلّا استئصالهم، تطهيراً للأرض عن هؤلاء الأنكاد البعاد:

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

ذلك وليس انتقام الله منهم وممن سواهم عجزاً منه وتحسراً ودفاعاً عن نفسه، إنما هو إصلاح للأرض بإزالة المفسدين الذين لا يرجى منهم أي خير إذ صدوا على أنفسهم كلّ منافذ النور والهدى.

فقد ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كلّها رسولية ورسالية، آفاقية وأنفسية «و» الحال أنهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ عن عمدٍ وتقصيرٍ، فالغفلة العامدة العاندة ليست بالتي يُعفى عنها في شرعة العدل والحكمة، إنما هي الغفلة القاصرة على قدر القصور فيها، فهذه هي ضفة الكفر والنكران، فإلى ضفة الشكر والإيمان:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

إن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ شملت بني إسرائيل لإيمانهم وأنهم ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ ثم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فمثلث الإيمان المستضعف الصابر هي هندسة تمام كلمة ربك الحسنى، فلذلك أورثناهم مشارق الأرض المقدسة ومغاربها التي باركنا فيها، وفي الطرف المقابل اللّاإيمان الاستكبار وعدم الاصطبار ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من صناعات ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من بنايات وجنات معروشات.

ذلك وبركات الأرض التي باركنا - وهي مصر القدس الكبير، وهو فلسطين الكبير بما فيه سوريا والأردن ولبنان - هي من ناحيتي القدسية الروحية والمادية، فقد بعث أكثر المرسلين منها ودفنوا فيها، ثم البركات المادية هواء وماء وكلاء وسائر الإخصاب نجدها فيها أكثر من غيرها.

صحيح أن الأرض المباركة والمقدسة هنا في القرآن هي فلسطين الكبير، ولكن ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ هنا تشمل مصر حيث كان فيها فرعون وقومه، فقد سيطرهم الله على مصر وما والاها وفلسطين وما والاها ولا سيما في زمن داود وسليمان.

وقد نحتمل قوياً أن يُعنى من ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ إلى محال وراثتهم محال استضعافهم.

إذاً فـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في مشارق الأرض ومغاربها «أورثناهم» مشارق الأرض ومغاربها، فهم أورثوا نفس الأرض التي استُضعفوا فيها وهي مصر، ولأن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ طليقة هنا من حيث الإيراث

مهما كانت مختصة بمصر من حيث الاستضعاف، إذاً فمحل إيراثهم أوسع من محل استضعافهم، ولكنها ليست كل الأرض لمكان ﴿ٱلَّتِي بَـٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ فهي الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هي التي قالها لهم موسى، منها: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ وقال من ذي قبل ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾[1] مهما كانت الأرض هنا لأصحاب المهدي (عج) كلّ الأرض، ولذلك أطلقت حتى تشملها، فقد تمت هذه الكلمة الحسنى عليهم في إيراثهم بمصر أولاً ثم في الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، ولكن ليست بجدارة طليقة كيفما كان عملهم، وإنما ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ وكان عملهم الأول كفراً وكفراناً لهذه الحسنى فقابلهم الله بمثل ما عملوا:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝١٣٨﴾:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ وهو اليم الذي أغرق فيه آل فرعون إذ ضرب لهم موسى بأمر الله طريقاً يبساً حيث انفلق فكان كلّ فرق كالطّود العظيم، وعلى أية حال ﴿وَجَٰوَزۡنَا...﴾.

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ إذ كانوا من المشركين الرسميين ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ وهم موحدون حسب الدعوة الموسوية، ولكنهم منحازون إلى المادة لحدٍّ رغبوا في عبادة الأصنام ﴿قَالَ

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون جهالة عريقة عميقة بعد ما رأيتم آيات الله البينات لكم على قوم فرعون.

فحين يقول بعض اليهود لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ يقول له: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾![1].

وذلك أوّل ما نظر الله كيف يعملون بعد ما تمت كلمة ربك الحسنى عليهم بما صبروا، وإلى أمثاله المسرودة مفصلاً في الذكر الحكيم بطيات آياتها.

لقد تمت مواجهة موسى آل فرعون بما أغرقوا، فلا يواجه بعد اليوم طاغوت فرعون وملإه، ولكنه تواجهه معركة أخرى مع أقربائه بعد أغربائه هي أشد منها وأقسى وأنكى منها وأشجى وأطول أمداً، حيث يواجه بني إسرائيل برواسب الذل الذي أفسد سجيتهم من ناحية، ورواسب الوثنية التي أفسدتها من أخرى، وكذلك الالتواء والقسوة والضعف والجبن عن حمل التبعات مع الذعر الدائم والتوقع القائم للبلاء.

ذلك رغم أنهم في الأصل على دين التوحيد، ولكنهم رغم ذلك كانوا قوماً ماديين يعيشون أصالة الحس والمادة دون عناية إلى ما وراءها إلّا تشريفياً دون أصالة، كهالة قدسية لمّا تتبدل إلى حالة عقيدية راسخة، وكما هو الظاهر من التوراة المحرفة حيث حرفوا لاهوت الألوهية إلى شاكلة إنسان له ما لسائر الإنسان، ولكنه أقوى، أم وهو أضعف أحياناً من إنسان، كما في قصة فنوئيل حيث تقول صارعه يعقوب فصرعه فاقتضى منه بركة النبوة حتى يخلصه فتقبل فنجي.

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وفي تفسير البرهان عن محمد بن شهر آشوب أن رأس الجالوت قال لعلي عليه السلام: لم تلبثوا بعد نبيكم إلّا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف؟ فقال علي عليه السلام: وأنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

وتراهم طلبوا إليه أن يجعل لهم إلهاً بديل الله هو كما الله؟ والإله المجعول لموسى ليس إلّا من خلقه واختلاقه فكيف يكون إله العالمين!.

القصد هنا هو ألوهية المعبودية تقرباً بالآلهة إلى الله زلفى كما يقولها سائر المشركين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1] فأجيبوا بـ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾ المقاييس والموازين أن تعبدوا غير من خلقكم وفضّلكم على العالمين!.

فعملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذلّ الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى عليه السلام منذ الآن بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزهم البحر، وهذه النفوس البئيسة التعيسة ستواجه الحرية الحقة بكلِّ رواسب الذلة والمسكنة، وتواجه الرسالة بكلِّ رواسب الجاهلية بكلِّ خلفياتها، بل وأنحس منها، فإن سحرة فرعون آمنوا بعد ما رأوا آية ثعبان العصا واليد البيضاء وهم لم يؤمنوا بعد ما رأوا كل الآيات الموسوية وهي بضع عشرة آية، اللّهم إلّا قليل منهم وفى لرعاية الحق.

وها هم ما أن يُجاوزا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، وإذا هم يطلبون طلبهم، ويغلبون أمام الأصنام غلبهم، حيث يطلبون من موسى رسول التوحيد من رب العالمين أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة.. طبيعة مخلخلة العزيمة، سريعة الهزيمة، ضعيفة الروح، قوية الشكيمة، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما ظلت ترتفع وتزيد حتى تنحط وتقل، فأين الدعوة التوحيدية الموسوية قرابة عشرين سنة أم تزيد، فقد نسوا آياته الرسولية والرسالية، وحتى التي أنجتهم في اللحظة الأخيرة إذ جاوز بهم البحر بعد ما أغرق فرعون وملأه! ولو أنهم اتخذوا لأنفسهم إلهاً لكان أقل غرابة وعتامة من أن يطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهاً كما

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

لهم آلهة! وما كان جوابهم المختصر المحتصر عجالة إلّا ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تجهلون كافة المعالم الإنسانية والإيمانية، فـ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ من الجهالة ضدّ المعرفة، ومن الحماقة ضدّ العقل، ومن البلاهة ضدّ الشعور، فما ذلك التقوّل التغوّل إلّا من أحمق الحماقة وأعمق الجهالة والبلاهة إلى غير حدود!.

ذلك وحق يقال إنهم أحمق وأعمق جهالة من آل فرعون المشركين إذ صمدوا على باطلهم ولم يهووا ولا مرة واحدة أن يوحدوا الله، وهم أولاء الأنكاد البعاد عشيرة التوحيد وقد عاشرهم رسول التوحيد عشرين وما زاد، ومن قبل كان منهم رسل التوحيد تترى، ثم بلحظة مّا عند ما نجوا، بدلاً أن يشكروا الله ويوطدوا توحيدهم تطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة!.

ولقد استحقوا بذلك التطلب الهراء الخواء ثالوثاً من ﴿تَجْهَلُونَ - إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ - أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد حفل سلباً لألوهة غير الله بالأوّلين وإثباتاً لألوهة الله بالأخير:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

جملة معترضة اعترضت بين قالتي موسى لهم، تجمع في تنديدها بني إسرائيل إلى آل فرعون، فـ: يا بني إسرائيل ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ الفرعونيين وسائر الوثنيين ﴿مُتَبَّرٌ﴾ منقطع ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من عبادة آلهة دون الله ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وما كلّ من يسمع إلى هذه القصة ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ من بني إسرائيل...

فهم قوم بوار تبار حيث تركوا عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة خلقه الضعاف النحاف.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

فيا سبحان الله قوم أنجاهم الله من عبودية الطاغية، وجاوز بهم البحر وأهلك عدوّهم وأراهم الآيات العظام ثم سألوا رسول التوحيد الشرك دون فصل! ولقد جاء من نظرائهم بصورة أخف من هذه الأمة حيث «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدة فقلت: يا رسول الله ﷺ اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها - وكانت تعبد من دون الله - فقال النبي ﷺ: الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلّهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»[1].

فيا أغبياء! ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ لكم ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمكرمات «و» اذكر منها ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ... وَفِى ذَٰلِكُم﴾ السوم من العذاب ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ حيث ابتلاكم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل لينظر كيف يعملون.

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية وفي طه مثلها باختلاف يسير في

(١) الدر المنثور ٣: ١١٤ عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا..
وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جدِّه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله له مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائف أرض شجرة دنواً عظيمة سدر كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تُعبد من دون الله فلما رآها رسول الله ﷺ صرف عنها في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: إنها السنن قلتم، والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.